بلادُ ما بين النهرين

الحضارتان البابلية والأشورية

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

بلادُ ما بين النهرين

الحضارتان البابلية والأشورية

تأليف

ل . د . يلا پورت

General

ترجمة

محرم كمال

مراجعة

د . عبد المنعم أبو بكر

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة للكتاب :

LA MESOPOTAMIE

تاليـف

ل ٠ ديلايورت

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقـــدمة	٧
الجـــزء الأول	
الحضارة البابلية	
الكتاب الأول : الحقائق التاريخية	
الفصل الأول : البلاد ومواردها	١٧
الفصل الثـــانى : السكان والأسرات	٢٢
الكتاب الثانى : النظـــم	
الفصل الأول : الدولة والعائلة	٦٨
الفصل الثانى : التشريع	٩٥
الفصل الثالث : النظام الاقتصادى	١٠٦
الكتاب الثالث : المعتقدات والحرف	
الفصل الأول : الدين	١٣٨
الفصل الثانى : الفنون	١٧٣
الفصل الثالث : الآداب والعلوم	١٩٨
الجـــزء الثانى	
الحضارة الآشورية	
الكتاب الأول : الحقائق التاريخية	٢٤٣
الكتاب الثانى : النظـــم	
الفصل الأول : الدولة والأسرة	٢٧٨
الفصل الثانى : التشريع	٢٩٨
الفصل الثالث : النظام الاقتصادى	٣٠١

الموضـــوع	الصفحة

الكتاب الثالث : المعتقدات والحرف

الفصل الأول : الديانة ٣١٦
الفصل الثانى : الفنون ٣٢٢
الفصل الثالث : الآداب والعلوم ٣٤٥
خاتمـــة ٣٦٠
المراجـــع ٣٦٥

مقـــدمة

ان المصادر التي نستمد منها معلوماتنا عن الحضارتين البابليـــة والآشورية ـ اللتين ازدهـرتا في سهول دجلة والفـرات ، قبل العصر المسيحي ، ـ تكاد تكون مقصورة على النقوش والآثار الخاصة بهاتين الحضـــارتين . ويرجع الفضل الى بوتا Botta ، قنصل فرنســـا بالموصل ، في البدء بعمل حفائر منظمة بغية الكشف عن آثار امبراطورية آشور القديمة ، فهو الذي كشف في عام ١٨٤٢ م في جهـــة خورساباد Khorsabad عن مدينة دور شاروكين Dour-Sharrookin التي شادها سرجون Sargon في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى استأنف الانجليزي لايارد Layard طائفة من الأعمال التي كان بوتا قد تركها فكشف عن اطلال نينوي القديمة وفيها المكتبة الهامة للملك آشور بانيبال ، Assurbanipal (القرن السابع) . وليس يدخل ضمن نطاق بحثنا سرد جميع الأبحاث التي أجريت بعد هذا البدء الســـعيد والتي اشـــترك فيها علماء آثار فرنســـيون وانجليز وألمان وأمريكيون (١) بيد أننا لانستطيع أن ننسى ـ فيما يتعلق ببابل ـ ذلك العمل الذي قام به ارنست دي سارزك Ernest de Sarzec فقد عين هذا الرجل وكيلا لقنصلية فرنسا بالبصرة وتسلم أعمال وظيفته في يناير من عام ١٨٧٧ م ولم يكد يمضي شهران على تعيينه حتى بدأ ينقب في أكوام الرمال التي يطلق عليها « تلو » واستمر في حفائره الناجحة حتى وافاه الأجل فحمل عنه العبء الكولونيل كروس Cros وكان من نتيجـة هذه الحفائر أن خرجت عشرات الآلاف من النصوص ، وأن برز تاريخ لاجاش Lagash ـ تلك المدينة الهـــامة ـ خلال الألف الثالثة كلهـا . وعلينا أن نذكر كذلك البعثة العلمية التي أوفدتها وزارة المعارف العمومية الى بلاد فارس من عام ١٨٩٧ م حتى عـام ١٩١٢ م تحت الادارة الحازمة لمسيو جاك دي مورجان ، فقد كشف عن أطلال سوس Suse وهي عاصمة بلاد مجاورة كانت في كثير من الأحيان عدوة لبلاد بابل ، كما كشف عن طائفة من قطع فنية ونقوش مما يلقي ضوءا كبيرا على الحضارة البابلية . ويكفي أن نذكر لوح النصر الخاص بـ « نارام سن » Naram-Sin

(١) XLIX.

(القرن ٢٨) وقانون حمورابى Hammuorabi (القرن ٢١) وهو أهم نص خاص بالقوانين القديمة كشف عنه حتى اليوم ٠

وانه لمن الصعب أن نجد معلومات جديرة بالاعتبار عن موضوعنا فيما أورده كتاب الاغريق والرومان ، اذ أن المصادر التى استقى منها هؤلاء الكتاب لم تعد فى الأغلب الأعم روايات السياح وأقاصيصهم ، ونحن اذا أردنا أن نحققها بأسانيد آشورية أو بابلية ، فاننا لا نلبث أن نجد أغلاطا وأخطاء كثيرة : فقد شهد هيرودوت مثلا بأن أرض بلاد بابل « فائقة الخصب فى انمـــاء الحبوب فهى تغل مائتين عادة فى مقابل كل حبة ٠ وفى الأراضى بالغة الجودة تغل ثلاثمائة » فالمؤرخ الاغريقى قد زار بنفسه البلاد فشهادته اذن صادقة بيد أنه مما لاشك فيه ، أنهم قد أروه حقلا من حقول التجارب حيث أمكن الحصول على غلة تفوق المتوسط بكثير ، فمنذ مدة قريبة ورد ذكر نوع من الحنطة زرع فى أرض جيدة بجهة مرنيـاك Merignac (جيروند) ، فعاد بغلة مقـــدارها ٢٢٥٠ للحبة الواحدة (١). ولكن لاينبغى لنا أن نستنتج من ذلك أن مثل هذه النتيجة يمكن الحصول عليها فى الأحوال العادية للزراعة ٠ وفى ســهول الفرات السفلى ، فان محصول الغلال الذى يبلغ من ٣٠ الى ٤٠ ضعف البذور ، لم يتغير الا قليلا عما كان عليه فى الزمن القديم ، اللهم الا فى الألف الثالثة ، حيث زاد المحصول عن ذلك طبقا لبعض الوثائق الحسابية فى اقليم لاجاش على مسافة غير بعيدة من الخليج الفارسى (٢) ٠

وحل رموز الكتابات البابلية والآشورية ـ وهى التى يطلق عليها المســمارية (أو الاســفينية) ، لأن كل عـــلامة منهـا تشبه المســمار (الاسفين) ، ـ يرجع الى أبعد من كشوف بوتا ، فلقـد كانت المحاولات الأولى تجرى على مجموعة من احدى وأربعين علامة مشـــتقة من الكتابة البابلية ، كانت تكون العلامات المقطعية فى النقوش الفارسية الأكمينية (الكيانية) (٣) ٠ وبعد بيترو ديلا فالى Pietro dellavalle الذى نقل فى عام ١٦٢١ خمس علامات من أطلال برسيبوليس Persépolis ، وتبين معنى الكتابة ، أتى شاردان Chardin (١٦٧٣) ، وكمفر Kaempfer (١٧١٢) ، وكورنى دى بريـن Corneille de Bruyn (١٧١٨) . ببيانات أكثر أهمية ٠ وحوالى ١٧٦٥ تمكن نيبور Niebuhr من ايجاد نطق بعض كتابات كاملة ، ولاحظ أنها تتكون من مجموعات كل مجموعة

(١) G. HEUZÉ : Les plantes Céréales. Le Plé. p. 182.

(٢) LII p. XLVI.

(٣) LXII.

فيها ثلاثة أشكال مختلفة من الكتابة ، اذا نقشت فى سطر واحد ، فان أبسطها يكون دائما جهة اليمين وأصعبها جهة اليسار · وفى عام ١٧٩٨ توصل تايشن Tyschen الى معرفة أن كلمات نصوص النوع الأول يفصل بعضها عن بعض علامة على شكل المسمار المائل · وفى عام ١٨٠٢ قدر مونتر Münter ان لغة هذه الكتابة الأولى ، لابد أنها تقارب لغة الزند التى تفصل كذلك بين الكلمات · وقد حاول أن يحل رموز هذه اللغة ، ولكنه لم يوفق الا فى ثلاث علامات للحركة ، وثلاث علامات صامتة · وفى نفس العام اعتمد جروتفند Grotefend على بعض الاعتبارات الأثرية ، فى محاولته حل معميات هذه الكتابة الأولى ، وقد وجد أن الكلمة — التى اعتقد تايشن ومونتر أنها تتضمن اللقب الملكى — توجد كثيرا مكررة مرتين عند مستهل النص · وفى المرة الثانية تنتهى بنهاية رأى فيها علامة الجمع مما يعطى مجموعها معنى « ملك الملوك » · ولا شك فى أن الكلمة السابقة تتضمن الاسم نفسه للملك بحيث تكون الصيغة فلان « ملك الملوك » · والمجموعة التى تعنى ملكا ، ترد أحيانا ككلمة ثالثة بعد هذه المجموعة وفى هذه الحالة لابد أن يكون لدينا اسم الأب يسبقه لفظ معناه « الابن » ، أى تكون الصيغة « فلان » ملك الملوك » ، ابن « فلان » « الملك » · وفى مكان آخر يوجد بالمقارنة « فلان » « ملك الملوك ابن فلان » ، دون أن يكون هذا الأخير ملكا · ولما كان الأمر يتعلق بنقوش « برسبوليس » ، فان هذه الصيغة الثانية لابد وأنها تذكر اسم مؤسس الأسرة الأكمينية فاذا كان الأمر يتعلق بكورش Cyrus الذى كان كل من أبيه وابنه يحمل نفس الاسم فان فلان ، وفلان يكونان شخصا واحدا ويكون فلان هو دارا Darius وحينئذ فان الترجمة يجب أن تكون :

اكسركسس ملك الملوك ابن دارا الملك ···

دارا ملك الملوك ابن هستاسب ···

ولكى يحل جروتفند رموز ثلاثة الأسماء الأعلام هذه ، استعان بالنطق القديم وأمكنه أن يحقق بصفة نهائية حركتين ويعين الحرف الصامت فى عشر علامات مقطعية · ولقد أكمل عمله أحد عشر عالما من بينهم لاسن Lassen وبرنوف Burnouf وهنكس Hincks وراولنسون Rawlinson · ولم يعرف أوبير Oppert المقطع « لا — la » الا فى عام ١٨٥١ أما العلامة الرمزية التى يختفى وراءها اسم « أورمزد » الاله الوطنى فقد ظلت مستعصية على الحل حتى عام ١٨٧٤ ·

أما ثانية كتابات برسبوليس فقد كانت مثار صعوبات كثيرة ولكن الرأى اتجه بحق الى أن ثلاث الأقاصيص لابد وأنها تروى نفس الشىء بثلاث لغات مختلفة ولقد لوحظ أولا وجود علامة خاصة تسبق أسماء

الأعلام ثم بذلت محاولات لترتيب العلامات تبعا لعدد واتجاه عناصرها ٠ وكانت أول محاولة جدية للترجمة هى التى قام بها عام ١٨٤٤ الدانمركى وسترجـــارد Westergaard ٠ وقد كشف هنكس عن مقاطع بعض العناصر (١٨٤٦) ودرس سولسى Saulcy (١٨٥٠) الصيغ النحوية ٠ وفى عام ١٨٥٣ نشر نورس Norris نقوش بهستون Béhistoun التى جمعها رولنسون وقد روجع فيها الحل الذى اقترحه وسترجارد ٠ ولقد كان من نتائج الحفائر التى قامت بها البعثة فى بلاد العجم ان كثر عدد النصوص المكتوبة بهذه اللغة الانزية التى كان يتحدث بها ســـكان عيلام غير الساميين ٠

أما الكتابة الثالثة فالفضل فى معرفة الكلمات الأولى منها يعود أيضا الى جروتفند فقد تمكن ان يفصل مجموعات العلامات التى تقابل أســـماء كورش وهستاسب ودارا واكزركسس ٠ ولما كان قد لاحظ مشابهة هذه الكتابة لكتابة الآجر الذى عثر عليه فى أطلال بابل ، فقد وفق الى تعيين المجموعة التى تتضمن اسم نبوخذ نصر ٠ وهكذا كانت الأحوال على وجه التقريب فيما يتعلق بمحاولة حل رموز هذه اللغـة عندما أعلن بوتا عن كشوفه ٠ أما عن النوع الثالث من كتابة برسبوليس ، فقد أمكن فقط الوصول الى معرفة عشرين من أسماء الأعلام المعروفة من النوعين الآخرين ٠ ولقد حاول لوفنشترن Lowenstern أن يصل الى حلها فوجد لبعض العلامات أشكالا أخرى تكتب بها ووضع أساسا لما أطلق عليه « توافق الأصوات » أى وجود علامات مختلفة تؤدى صوتا واحـدا ٠ وقد تمـكن لونجبرييه Longpérier من حل رموز بروتوكول سرجون على الآثار التى كشف عنها بوتا ورتبها الى ٦٤٢ علامة مختلفة فوجـد كمـــا وجد لوفنشترن علامات ذات صوت واحد وميز كتـــابه خورزاباد عن كتابتى برسبوليس وبابل وأكد أخيرا أن اللغة سامية ٠ وفصل ســولسى Saulcy جملا صغيرة في نصوص برسبوليس تطابق جملا فى النص الفارسى وعين ١٢٠ حرفا ووجد نطقها ٠ وكشف هنكس في دبلن عن أساس الحروف المقطعية بمعنى أن بعض العلامات تســاوى مقاطع وليس حـروفا فقط ٠ ثم اهتم سولسى أخيرا بنصوص خورزاباد واقتنع بأن النص نفسه قد كرر عدة مرات وعمل مقارنات وبفضل استخدامه لقراءاته الســـابقة للعلامات أمكنه الوصول الى ترجمة ٩٦ سطرا ٠ واقترح رولنســـون ــ الذى كان قد نشر اذ ذاك ترجمة لمســـلة نمرود دون تعليق ــ ترجمة فيها اختلاف بسيط ٠ وفى عام ١٨٥١ قرأ رولنسون وترجم نص بهستون الذى ينتسب الى النوع الثالث من الكتابة فبين قيمة ٢٤٦ حرفا وكشف عن مبدأ « تعدد الأصوات » أو وجود علامات لكل منهـــا عدة قيم وعدة أصوات ٠ وفى السنة التالية تحقق هنكس من أن بعض العلامات تكون

مقاطع مركبة وكلما تعمق البحث فى حل رموزها ، ازداد أمرها تعقيدا وعند ذلك رأت الجمعية الآسيوية بلندن أن تقترح على عدة علماء أن يحل كل منهم على طريقته الخاصة ومبادئه رموز نص تزيد سطوره على الثمانمائة وأرسل رولنسون وهنكس وفوكس تالبوت وأوبير مخطوطاتهم ففتحت فى ٢٥ مايو سنة ١٨٥٧ وكانت النتيجة مرضية تماما • وقد طبعت التراجم الأربع لهذا النص الخاص بملك آشور تجلات فلاسر الاول Teglath-phalssar على أربعة أعمدة لكى يتأكد الجميع من أنه قد عثر على مفتاح الكتابة الثالثة للنصوص الأكمينية وهى كتابة الآشوريين والبابليين •

★★★

أما الأدب البابلى والآشورى فهو متنوع جدا فآلاف النصوص ، سواء أكانت أصلية أم نسخا قديمة ، المحفوظة الآن فى متاحف أوربا وأمريكا تتراوح بين عصر يرجع الى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق•م • ويصل حتى القرن الأول ومن هذا الأدب نقوش تاريخية : حوليات وتقاويم وتكريس مبان وكتابات نذور وقوائم تأريخية • وكذلك نصوص دينية : أناشيد وصلوات ومزامير توبة•ثم نصوص سحرية : رقى وتعاويذ • ثم طوالع طبقا للأرصاد الفلكية أو لحركات الانسان والحيوان والأحشاء والزيت الذى يصب فى الماء • كما يوجد من بينه الشعر : ملاحم وأساطير وقصص ••• هذا الى نصوص قانونية : لوائح وأحكام قضائية • ثم عقود من جميع الأنواع ، من بيع وشراء وسلفة وشركات تجارية وزواج وطلاق وتبنى • وكذلك أمور حسابية لمحفوظات المعابد والقصور والعائلات • ثم مراسلات، سواء منها الرسمية أو الخاصة • ومجموعات لدراسة الخط والنحو واللغة • وقوائم جغرافية وجداول حسابية وفلكية وشئون طبية •

وليس الفن وعلم الآثار بأقل تمثيلا ، فهناك تماثيل كبيرة وصغيرة من الحجر أو المعدن ونقوش بارزة ومجسمة وألواح نصر وأشكال صغيرة من المعدن أو الآجر وأوان محفورة وأختام تخليها المناظر الدينية وفخار ملون ••• كل أولئك يشهد فى مختلف العصور بتقدم كامل أو بالعودة الى نظريات أكثر بداءة وقدما هذا الى أن الحفائر قد كشفت عن طرق البناء وتخيط ونظام المدن ••• وبعض البيانات الواردة فى نص قديم يمكن فى بعض الأحيان تطبيقها اليوم مباشرة على أطلال الأثر الذى ذكر وصفه •

ومع ذلك فان الآلاف من الوثائق مختلفة الأنواع ستؤلف حتما سلسلة متصلة الحلقات على مدار الزمن • ثم ان أعمال الحفائر قد كشفت عن مجموعات تكون فى كل منها وحدة لعصر ومكان معينين على صورة

خاصة بيد أنه لايمكن فى الوقت الحاضر تعيين مقابل لهـا لعصر آخـر أو مكان آخر · وهكذا وصلت الينا حسابات المعابد وبخاصـة من الألف الثالثة ، ومحفوظات عائلات من عصر الأسرة الأولى البابلية وأخرى من عصر الملوك الآكمينيين ولم يتكشف لنـا الفن الآشـورى الا من القرن التاسع حتى القرن السابع على حين أن تاريخ آشور يرجع الى ما هو أبعد من عام ٢٤٠٠ ق·م ·

وأول ما تتجه اليه العناية فى دراسة حضارة من الحضارات كائنة ما كانت هذه الحضارة يجب أن تنصرف أولا الى تبويب الوثائق وتقسيمها بحسب العصور : فالانقلابات الكبيرة الاجتماعية أو السياسية لاتمضى دون أن تغير من الأخلاق والعادات تغييرا يتفاوت مقداره ودون أن تترك أثرا فى الفن والأدب · ويجب علينا منذ الآن أن نحدد الاطار التاريخى الذى نمت وترعرعت فيه النظم البابلية والآشورية ·

وهذا الاطار ذو وجهين ان نحن نظرنا الى العلاقة الزمنية التى تربط الحوادث ببعضها البعض أو تلك العلاقة التى تربط هذه الحوادث بالزمن الخاص ·

ولقد فرض نظام طبيعى على جميع الشعوب هو نظام اليوم الذى يتعاقب فيه الليل والنهار · فمهما تكن نقطة الابتداء المقررة ـ غروب الشمس أو شروقها ـ وقت الظهيرة أو منتصف الليل ـ فهو العنصر الأزلى لكل تأريخ ·

أما التقسيم الثانى فينتج عن تجدد الفصـول فبعد عـدد معين من الأيام تحدث فى الطبيعة الظواهر نفسها طبقا لعملية نظامية وهذا يتأتى عن انحراف سمت الشمس بالنسبة الى خط الاستواء الأرضى وينتج عن هذا : السنة الشمسية التى لم تحدد مدتها الا مؤخـرا ولا تضم عددا مضبوطا متساويا من الأيام ·

وعلى ذلك فان الشعوب القديمة اضطرت الى أن تلجأ الى تقسيم ثالث للزمن واعتمدت فى ذلك على مدار القمر الذى يضم كل من وجوهه الأربعة عددا صغيرا من الأيام ولكنها كذلك لا تطابق هى الأخرى عددا صحيحا ·

ولقد اتبع البابليون والآشوريون طريقة تجريبية ثبت (بضم الثاء وتشديد وكسر الباء) بها بدء الشهر الذى أصبح ٢٩ أو ٣٠ أو ٣١ يوما حسب بدء ظهور الهلال فى السماء · ولما كان من المستحيل الوصول الى مقياس عام بين الشهر القمرى ودوران الشمس فقد احتسبت السنة العادية اثنى عشر شهرا واستعيد التوازن عن طريق ادخال شهر ثالث عشر من وقت لآخر ·

وفى أقدم الوثائق المسماة بما قبل السرجونية ـ لأنها تسبق اعتلاء سرجون ملك أجاده (القرن ٢٩) ـ بينت سنوات كل حكم برقم بسيط على لوحات الحساب أما عادة اعطاء كل سنة اسما تبعا لحادث معين يستحق التخليد فى السنة السابقة ، فقد بدأ العمل بها منذ عصر « أجادة » واستمر حتى عهد الملوك الكاسيين الذين استعملوا طريقة الحساب لسنى الحكم التى عمل بها فى بابل فيما بعد حتى انهيار الامبراطورية . أما فى أشور فقد كانت أسماء الملك وكبار الموظفين تطلق متتابعة على السنين . وترجع هذه العادة الى عهد ممعن فى القدم ... الى القرن الرابع والعشرين على الأقل وهو عصر ثبت اتباعها فيه كما يظهر على لوحات خاصة بمستعمرة لعبدة آشور فى كابادوكيا .

الجزء الأول

الحضارة البابلية

الكتـــاب الأول :

الحقـائق التاريخية

الفصل الأول

البـلاد ومـواردها

اذا نحن استثنينا منطقة اريـــدو Eridou (أبـــو شـــهرين) Abou-Shahrein وهى المدينة التى تقع فى أقصى الجنوب بجزيرة في الخليج الفارسى يفصلها عن وادى الفرات صخرة من الحجر الرملى ، فان اقليم بابل الذى عرفه الكتاب الأقدمون (اليونانيون والرومان) ينطبق تماما على ذلك السهل الذى كونه نهرا دجلة والفرات عند وصولهما الى البحر ــ كوناه من تراكم الرواسب التى أتت موادها من جبال ارمينيا التى تنبع منها (حيث يوجد منبعا هذين النهرين) • وحدود هذا الاقليم الطبيعية هى : فى الغرب الصحراء العربية التى يسكنها بدو يقومون بالغارات على السكان المستقرين ، وفى الشمال السهل الأعلى لبلاد ما بين النهرين حيث يوجد الآشوريون ، يفصل بين هذا الاقليم وبينهم خط يبدأ من حت Hit على الفرات ويبلغ دجلة على مسافة قليلة شمال ملتقى الأدهم l'Adhem ، وفى الشرق التحصينات الأخيرة من التلال التى تكون الحد الحالى لبلاد الفرس وفيها قبائل من أصول مختلفة • استقرت فى جميع الوديان ، ومن هنا يأتى الحجر والمعادن وخشب البناء ، وفى الجنوب الخليج الفارسى ومستنقعات لا تكاد تمتد الملاحة خارجها ــ وهذا السهل فى بدء العصور التاريخية لم يهبط كثيرا الى ما تحت القناة الحالية المسماة « شط ــ الحى » : واقليم لاجاش Lagash وهى المدينة التى توجد أطلالها (تلو) على مسافة الساعة وربع الساعة الى غرب هذه القناة وتبعد مائتى كيلو متر عن الخليج كانت تدخل ضمن المنطقة البحرية •

ونظام النهرين ليس واحدا : فدجلة بشطآنه المرتفعة الصـــلبة ذو مجرى سريع ويبدأ فيضانه فى أوائل مارس ويبلغ أشده فى الأيـام الأولى من شهر مايو وينتهى حوالى منتصف يونيه وتوجد على شـــواطئه المستنقعات • أما الفرات فمياهه أقل مرتين ويبدأ فيضانه متأخرا نحو خمسة عشر يوما ولا ينتهى قبل شهر سبتمبر • ولما كانت ضفافه أقل ارتفاعا فانه ينتشر بسهولة فى السهل ويضفى عليه فيضانا مباركا نافعا

مليئا بالخيرات · ولقد فضل السكان الأول ضفافه ليؤسسوا عليها مدنهم · ومجرى الفرات الحالى لا يصل الى أطلال معظم هذه المدن القديمة ومع أن بابل (حلة Hillé) وأور (مغير Moughéir) يقعان على مقربة من مجراه فان المدن الأخرى تقع على مسافة ما الى الغرب فى السهل· لكن ما ورد فى النصوص القديمة يثبت تحول النهر بسبب رخاوة الارض وتداعى الشواطىء أثناء الفيضان والعلامة التى تدل فى الخط على الفرات معناها « نهر سيبار Sippar » واذن فان سيبار (أبو حبة) كانت تقع على شواطئه واحدى سنى « سمسوايلونا Samsoo-illouna » وهو ملك من الأسرة الأولى البابلية ـ تحيى ذكرى بناء حائط سور كيش Kish (الأحيمر) « على شاطىء الفرات » وتقع اطلال كيش على قناة تدعى « شط النيل » التى تمر كذلك بـ « نفر Niffer » وهى أطلال نبور · ولقد كانت احدى فروع الفرات فى عهد دارا الثانى تدعى « نهر سيبار ونبور » · ولقد كانت شوروباك (فارا) Shourouppak (Fara) كذلك « على شاطىء الفرات » طبقا لما ورد بأسطورة جلجامش Gilgamesh ، أما لارسا (Larsa) (سنكره) (Senkereh) ، فان المعلومات نفسها تعطيها الرسائل المتبادلة بين حمورابى وسينيديتام Sinidinnam حاكم هذه المدينة · ولقد كانت فروع النهر كثيرة وكانت أوما Oumma (جوها Djoha) تقع على الفرع الذى يمر على مقربة من لاجاش ومنذ العصور التاريخية الأولى ـ عندما كانت المدينتان فى كفاح مستمر ـ حفر انتمينا (Entéména) أمير هذه المدينة الاحيرة قناة تصل بين النهرين وكان دجلة ـ الذى تحول مجراه تبعا لذلك نحو الشرق ـ يتبع فى ذلك العصر تقريبا المجرى الحالى لشط الامارة Shatt-el-Amâra .

ولقد كان الانسان الذى استقر فى هذه الجهات منذ أصبحت صالحة للسكنى صاحب حضارة عالية · فلكى يتقى الفيضان شيد مدنا على منحدرات صناعية وبنى بيوتا ومعابد من اللبن واقتنى قطعانا كبيرة من الماشية الكبيرة والصغيرة وعرف كيف يروى زراعته ويحفر القنوات ويصنع آلات الرى وكان يشكل النحاس والفضة ويصنع الأسلحة من المعادن ·· ومع أن ما كان ينحته كان لايزال بدائيا غير متقن الصنع فان كتابته تشهد بتقدم كبير : فلم تعد كتابة تصويرية وانما وجدت الى جانب العلامات المشتقة من الصور علامات صوتية بحتة · ولقد وجدت فى الطبقات شديدة العمق آثار صناعة العصر الحجرى الحديث ممثلة فى قطع من الطران المشطوف المجلوب من المناطق الجبلية ·

وعندما زار العالم الطبيعى أوليفييه Olivier بلاد ما بين النهرين فى مستهل القرن التاسع عشر وجد الشعير والغلال والحنطة تنمو برية

فى قطعة أرض غير صالحة للزراعة تقع الى الشمال الغـــربى من « عنة » Anah على الضفة اليمنى للفرات · وهذه المنطقة هى الموطن الأصلى لهذه النباتات الثلاثة منذ أقدم الأزمنة وقد انتشرت منها وامتدت الى بلاد بابل ، والشعير بوصفه الأساس الذى يقوم عليه غذاء الانسان والحيوان هو فى جميع عصور التاريخ أكثر النباتات انتشارا وهو العملة السارية التى يقدرها الجميع والتى ظل اقراضها حتى نهاية الامبراطورية البابلية الحديثة أغلى من اقراض الفضة ·

وكان الدخن (الذرة البيضـــاء) يزرع كذلك على أنهم فيما يبدو كانوا يجهلون الجاودار والشوفان · أما السمسم فانهم كانوا يهتمون بأمره لحاجتهم الى زيته الجيد والى شراب كانوا يســـتخرجونه منه · أما الأثل فكانوا يقدرونه من أجل صـــمغه الحلو وكذا الكروم لعنبهـــا وزبيبها ونبيذها · ولقد ورد ذكر شـــجر التين والرمان فى النصـــوص السابقة على عصر سرجون ، واعتبر جوديا Goudéa ثمرها خليقا بان يقدم الى الآلهة (١) · أما أشجار النخيل فهى من أهم مصادر الثروة فى البلاد وهى على حد قول استرابون : « تكفى لسد جميع حاجات السكان فمنها يتخذون نوعا من الخبز ، ويستخرجون نبيذا وخلا وعسلا وفطائر ومئات أنواع النسيج ويستخدم الحدادون نواها وقودا كما أن هذا النوى نفسه كان يستعمل بعد أن يســـحق وينقع لغذاء الأبقار والثيران والخراف لتسمينها » وكانوا يزرعون فى الحدائق البصل والخيار وكثيرا من النباتات الأخرى التى لم تعرف أنواعها بعد على وجه التحقيق · وقد ذكر على لوحة صغيرة من عصر اجاده Agadé (حوالى القرن ٢٨) زراعات بصـــل مساحتها ربع ونصف بل و « جان » (٢) كامل (٣٥ آر) (حـــوالى ⅞ فدان) (أو ٣٥٠٠ م٢ تقريبا) أما أعواد الفصب الضـــخمة فقد كانت تســـتخدم فى اقامة الملاجىء والسياجات وعمل الأقلام والرماد اللازم للغســـيل (٣) ·

أما الحيوان الذى ثبت وجوده من النصـــوص القديمة أو الصور المنقوشة : منه المستأنس وهو الحمار والبقرة والثور والكبش والماعز والخنزير والكلب والدواجن ، ومنه غير المستأنس وهو الأســـد والبقر الوحشى والتيتل والأيل والفهد والعنز البرى والوعل والصقر والثعبان والعقرب وأنواع عديدة من الأسماك وذوات القشور ·

---

(١) LXXVI, p. 123.

(٢) XIX, t. 11 no 3070.

والعلاقة بين المقاييس القديمة ونظام المقاييس المعروف مبين فى الفصل الثالث ·

(٣) I, t. VII, p. 107 et suis.

ويوجد نوعان من الحيوان من فصيلة الحمار يمكن تمييزهما تماما منذ أقدم العصور ، ربما كانا الحصان والبغل ٠

ويبدو أن السكان القدامى كانت لديهم فكرة عن تربية النحل ووجود النحل في الوادى الأسفل للفرات ، اذ أنهم كانوا يجمعون العسل ويتخذونه غذاء ٠ ولقد كان حيوان بلاد بابل ونباتها ينمو ويترعرع على أرض من الرواسب كونها دجلة والفرات من متخلفاتهما ٠ وكانا يزيدانها خصبا في كل عام بيفضانهما المبارك المملوء بالخيرات ٠ وكان على الانسان أن يتخذ مسكنه فوق مستوى الفيضان ولهذا صنع مرتفعات صناعية كان يقيم فوقها كوخا من القصب أو بيتا من الطمى ٠ ولقد أمدته الأرض الطمية بالمادة اللازمة لصناعة اللبن وكان يحرقه أو يكتفى بتجفيفه فى الشمس كما كان يصنع منه أيضا كل الأوانى الفخارية اللازمة للاستعمال فى الحياة المنزلية من صحاف وأوان للشرب وقدور وجرار ٠ كما شكل منه اللوحات الصغيرة التى كان يستخدمها فى تخليد ذكر الأحداث العامة أو تسجيل المعلومات الخاصة مستعملا فى تسجيلها قلما من القصب ، كما كان يتخذ من الأصداف والعظم أدوات الزينة ، ولكنه لم يجد فى اقليمه حجرا أو معدنا ، فقوائم أبواب القصر وكتل الديوريت أو المرمر التى كانت تنحت منها تماثيل الآلهة والملوك والأحجار الكريمة التى كانت تصنع منها الأختام المنقوشة وخشب الأرز الذى كانوا يقدرونه ويبحثون عنه لتزيين الهياكل ، والذهب والفضة والحديد والنحاس الذى كانوا يصنعون منه الأدوات المختلفة ٠٠ كل هذا كان يستورده اهل بابل من الخارج ٠

وقد دفعتهم هذه الحاجة الى أن يوثقوا صلاتهم بغيرهم من الأقوام ، فالى الجنوب تمتد المستنقعات الى شاطىء البحر ، فلم تصب الملاحة أى تقدم مطلقا ، والى الجنوب الغربى توجد الصحراء الجرداء التى تخيلها الناس مليئة بالشياطين المرعبة ، وفى الشمال الغربى ينفسح طريق طبيعى : فعندما يسير المرء مصعدا فى مجرى الفرات فانه يبلغ ـ فيما وراء ملتقى خابور Habour ـ جبالا يكثر فيها الديوريت ٠٠ وبعد مسافة فى غرب انحناءة النهر فى جبال طوروس توجد مناجم الفضة التى كان يدور العمل فى استغلالها منذ أقدم العصور ٠ وفى أمانوس Amanus ولبنان توجد غابات الأرز وغيرها من الأشجار التى تستخدم كأطواف تحمل عليها كتل الأحجار ، ثم تستعمل هى نفسها فى البناء وكانت قوافل بابل تهبط على طول ساحل البحر الأبيض الى دلتا النيل كأنما تمهد الطريق للآشوريين ولنبوخذنصر ٠ وفى آسيا الصغرى خلال الألف الثالثة استعملت الكتابة المسمارية على لوحات الطين ، استخدمها ساميون من عبدة آشور ، وكان يبدو فى فنهم حينذاك بعض الصفات المعينة التى تميز آثار الحيثيين